الدرس الثلاثون :

فضل الله في الثواب والعقاب

روى الشيخان ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربِّ العزَّة تبارك وتعالى ، أنه قال : « **إنَّ الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيَّن ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يَعْمَلْها كتبها الله له حسنةً كاملةً ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة ، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة** »[1].

فضل وإحسان لا عدل وامتحان :

في هذا الحديث الكريم نتبيَّن فَضْل الله تعالى ، وسَعَة رحمته بعباده ، وأنه يعاملهم بكرمه وجوده ، لا معاملة العدل فحسب ، بل معاملة الإحسان والكرم والفضل والجود .

فمن همَّ بحسنة ولم يعملها[2]، خَطَرت في باله الحسنة ، وحَدَّث بها نفسه ، وتحرَّك قلبه بعملها[3]، ولم يبلغ درجة العزم المُصمِّم ، مع هذا يكتبها الله له[4] حسنة كاملة . . . بهمِّه بالحسنة ، فإذا هو عمل الحسنة ، ونفَّذ بالفعل ما حدث به نفسه من طاعة وقربة لله ، كتبها الله له عشر حسنات . . . إلى سبعمائة ضعف . . . إلى أضعاف كثيرة يعلمها الله عز وجل .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الرقائق (٦٤٩١) ومسلم في الإيمان (١٣١) ، كما رواه أحمد (٢٨٢٧) .

(٢) أي لعائق عَرَض له ، أو أنَّ العرض قائم من قبل ، كأن ينوي فعل الخيرات والمبرَّات ، لكنه لا يملكُ مالاً ،فهذا الذي له الحسنة كاملة أما إذا همَّ بها ثم فترت همته فلم يعملها : فلا شيء له .

(٣) قال القاضي عياض كما نقله النووي في «شرح مسلم»٢ : ١٥١ : فأما الهمُّ الذي لا يكتب : الخواطر التي لا تُوَطِّن النفس عليها ، ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم».

(٤) أي : يأمر ملائكته بكتابة ذلك . كما جاء في رواية أبي هريرة عند البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٠١) : «يقول الله : إذا أراد عندي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها..» فهذه الرواية تبين من يباشر الكتابه ، وتسند الكتابة إلى الله تعالى باعتباره أنه الآمر بها .

تضاعف الحسنات :

أدنى الحسنات ما يثاب الإنسان عليه عشرة أمثاله : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:١٦٠).

وهناك من الحسنات ومن الصالحات ما يثاب عليه الإنسان أضعافًا مضاعفة ، تبلغ السبعمائة وما فوق السبعمائة ، كالنفقة في سبيل الله ، وفي نصرة الإسلام ، وإعلاء كلمة الله في الأرض ، يقول الله عز وجل : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١).

وقد ورد في الصيام ، عن النبيِّ ﷺ ، أنه يخبر عن رب العزة : « كل عمل ابن آدم يضاعف له ، الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به »[1]. أي يضاعف الله ثواب الصيام بأكثر من سبعمائة ضعف ، إن الله يضاعف بنفسه ، ويجزي بنفسه ، والكريم إذا أعطى بيده ، ولم يَكِلْ ذلك إلى خدمه أو أعوانه أو وكلائه ، إذا أعطى بنفسه ، ومنح بيده ، فإنه يُجزل العطاء ويُعظِّم الأجر .

ولهذا وَرَدَ عن أبي هريرة في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٠)، فقال : الأجر العظيم من الله ، فمَن يقدر قدره[2]؟

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٦ .

(٢) عن أبي عثمان قال : بلغني عن أبي هريرة أنه قال : إن الله عز وجل يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة ، قال : فقضى أني انطلقت حاجًّا أو معتمرًا ، فلقيته فقلت : بلغني عنك حديث أنك تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الله عز وجل يعطي عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة » . قال أبو هريرة : لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الله عز وجل يعطيه ألفي ألف حسنة » . ثم تلا ﴿ يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٠)، فقال : إذا قال : ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فمن يقدر قدره؟ رواه أحمد (١٠٧٦٠) ، وقال مخرِّجوه : إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد ، وهو ابن جدعان ، عن أبي هريرة ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد بإسنادين ، والبزار بنحوه ، وأحد إسنادي أحمد جيد (١٠/٢١٤) .

وقال الله تعالى في شأن الصَّابرين : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠). هذا في جانب الحسنات .

لماذا يكتب الله الهمَّ بالسيئة دون العمل حسنة ؟

وفي جانب السيئات نجد الحديث يقول بأن : «من همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنةً كاملةً» .

فمن حدَّث نفسه بأن يقترف إثمًا ، أو يرتكب معصية ، ثم خاف الله ، وخشي الحساب ، وتذكَّر الآخرة ، وتذكَّر الجزاء ، فرجع وتراجع عن فعل المعصية ، هنالك يكتبها الله له حسنة كاملة ، كما قال الله عز وجل في وصف المتقين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، فإذا همَّ الإنسان ووسوس له الشيطان ، بارتكاب معصية ، ثم خاف الله فلم يفعلها ، كتبت له حسنة كاملة .

وقد ورد في حديث أبي هريرة ما يفسِّر هذا [1]، لأن من ترك السيئة من أجل ربه ، كتبت له حسنة ، فإن هو همَّ بالسيئة فنفذها واقترفها فعلاً ، كتبت عليه سيئة واحدة : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٦٠).

وفي رواية لمسلم : «أو محاها الله عز وجل ، ولا يهلك على الله إلا هالك»[2].

إما أن تكتب عليه سيئة واحدة ، وإما أن يعفو الله عز وجل ، وعفو الله واسع ومغفرته واسعة ، ورحمته وسعت كل شيء . . . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: ٥٣).

---

(١) يشير فضيلة الشيخ إلى الرواية الأخرى التي عند البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٠١) عن أبي هريرة : «وإن تركها ـ أي السيئة ـ من أجلي ما كتبوها له حسنة» . وفيه بيان عِظَم أجر الخوف من الله عز وجل .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٣١) ، عن ابن عباس . ومعنى «لا يهلك على الله إلا هالك» أي : لا يهلك مع فضل الله إلا هالك ، فـ«على» بمعنى : مع ، وفيه مضاف محذوف تقديره : فضل .

إقبال من الله لكن العبد يدبر :

الله عز وجل يفتح لنا الباب على مصراعيه ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها[1].

إنه عز وجل يدعونا إلى نفسه ، وينادينا إلى حظيرة قدسه ، ويفتح لنا ميادين مغفرته ، ويهيب بنا جميعًا أن ندعوه ونتضرع إليه ، ونسأله المغفرة .

إن الله تعالى يقترب منا ، ولكنا نحن ـ بسوء أعمالنا ـ نهرب منه ، ونبعد عنه ، ونفر منه بدل أن نفر إليه ، وهو عز وجل يقول : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الذاريات:٥٠) .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:١٨٦).

وقد بيّن ذلك في حديث قدسي رواه البخاري قال الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فمَن ذكرني في نفسه ، ذكرتُه في نفسي ، ومَن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منه ، ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا ، تقرَّبتُ إليه ذراعًا ، ومن تقرَّب إليَّ ذراعًا ، تقرَّبتُ إليه باعًا ، ومَن أتاني يمشي أتيته هرولة »[2].

أهناك أقرب من الله عز وجل؟؟

أهناك أعظم رحمة ، وأوسع مغفرة وعفوًا ، وأكرم يدًا ، وأكثر فضلاً من الله عز وجل؟؟

لا والله . . . إنه يفتح لنا الأبواب ، ونحن نصدُّ عنها بوسوسة الشيطان ، وبتسويل الأنفس الأمَّارة بالسوء ، ولقد رُوي في بعض الأحاديث القدسية أنَّ الله عز وجل يبين إعراضنا وإقباله علينا ، وقربه وبعدنا عنه ، فيقول عز وجل :

« إني والجن والإنس في نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويُشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد .

---

(١) إشارة إلى حديث أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وقد رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٩) ، وأحمد (١٩٥٢٩) .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٢ .

أتحبَّبُ إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، فيتعرضون إليَّ بالمعاصي وهم أفقر شيء إليَّ ، مَن أقبل عليَّ منهم تلقيته من بعيد ، ومَن أعرض عني ناديته من قريب .

آل ذكري آل مجالستي ، وآل شكري آل محبتي ، وآل معصيتي لا أُقنِّطهم من رحمتي ، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، أحبُّ التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب .

الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أو أزيد ، والسيئة عندي بواحدة أو أعفو ، رحمتي سبقت غضبي ، وحلمي سبق مؤاخذتي ، وعفوي سبق عقوبتي ، وأنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها »[1].

هذا الحديث إن لم يصح سندًا فقد صَحَّ معنًى ، فإنه يبيِّن العلاقة بين الله وبين عباده ، بين خلقه من الجن والإنس وبين ربهم عز وجل .

لا يهلك على الله عز وجل إلا هالك :

إنَّ الله يتقبل وينادي الناس من قريب ، ويتلقَّاهم من بعيد ، وهم يبعدون عنه ، ويعرضون عن ذكره ، ولا يقبلون عليه ، ويصدُّون عن سبيله .

أليس هذا جحودًا من الناس ؟

أليس هذا كنودًا من الخَلق ؟

أليس هذا كفرانًا للنعمة ؟

أليس مَن هلك بعد ذلك فإنه هالك فعلاً ، « لا يهلك على الله إلا هالك » .

إذا كانت السيئة بواحدة أو يُعفى عنها ، وإن كانت السيئة التي يفكر فيها الإنسان ، ويُحدِّث بها نفسه ثم تركها ، إذا تذكَّر الله تكتب له حسنة كاملة ، وإذا كانت الحسنات تضاعف أضعافًا كثيرة إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، والله واسع عليم ، فمَن ذا يهلك بعد ذلك إلا الهالكون ؟

---

(١) رواه البيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٥٦٣) مختصرًا ، والطبراني في مسند الشاميين (٩٧٥) ، عن أبي الدرداء ، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٣٧١) .

إلا الذين مرضت قلوبهم ، وماتت أنفسهم ، وسيطر الشيطان عليهم ، واتَّخذهم له عبيدا ، واتخذوا آلهتهم أهواءهم ؟

مَن يهلك بعد هذا ؟!

وفرص المغفرة كثيرة أعظم من أن تُحصى؟ الصيام ، والقيام ، والوضوء ، والصلوات الخمس ، والصدقات ، والجمعة الأسبوعية ، والحج بلا رفث ولا فسوق ، والعمرة ، والذكر والدعاء والاستغفار ، وتلاوة القرآن ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، وأعمال الخير ، والمصائب تنزل بالإنسان ، وغير ذلك كثير .

كل ذلك من كفارات الذنوب ، ومن وسائل المغفرة . . . فمَن أعرض عن الله بعد ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . . . فمَن جاءه مثل رمضان ، وخرج منه غير مغفور له ، فيا وَيْله ! ثم يا وَيْله ! ويا خيبته ! ثم يا خيبته !

لقد دعا عليه جبريل ، وأمَّن على دعائه محمد ﷺ ، فقد رقي النبي ﷺ منبره ، فقال : « آمين ». فسأله الصحابة ، فقال : « إن جبريل قال : بعدًا لمَن أدرك رمضان ولم يُغفر له ». وفي رواية : « من أدرك رمضان ولم يغفر له ، فأبعده الله ثم أبعده »[1]. قال هذا جبريل ، وأمَّن عليه محمد ﷺ .

فما بالكم بمَن يدعو عليه جبريل ، سيد الملائكة وأمين الوحي ، ويؤمن عليه سيد الخلق أجمعين ، محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

إننا نسأل الله عز وجل أن يجعل لنا في هذا الشهر المبارك فرصة يغفر الله لنا فيها ، ويتقبَّل منا صيامنا وقيامنا ، وأن يكون صيامنا وقيامنا ، إيمانا واحتسابا .

الدعوة إلى صلاة العيد في المُصلَّى :

كما أودُّ أن أنبِّه إلى صلاة العيد ، في المصلَّى . . . في الخلاء . . . فإنَّ السنة أن تكون صلاة العيد في الخلاء ، كما كان يفعل النبي ﷺ ، ولم يرد أنه عليه الصلاة

---

(١) سبق تخريجه صـ٣٢ .

والسلام صلَّى في المسجد ، إلا مرة ، روي أنه صلاها في المسجد لعذر المطر[1] ، وأهل الأعذار يستطيعون أن يصلوا في المساجد ، المرضى ، والمقعدون ، ومَن لا يستطيعون الذهاب ، ومَن لا يملكون سيارات تنقلهم ، وقد بَعُدت منازلهم عن المصلَّى .

أما عامة المسلمين فليصلوا في الخلاء ، في المُصَلَّى ، خلف الإمام : فإن يوم العيد يوم مهرجان إسلامي ، يجتمع فيه المسلمون مُكبِّرين ، مُهلِّلين ، مُظهرين شعائر الإسلام وقوة المسلمين ، ولهذا كان يحضره الرجال ، ويحضره الصبيان المُميِّزون ، وتحضره النساء ، حتى النساء الحُيَّض ، كُنَّ يحضرن صلاة العيد في عصر النبي ﷺ ، يعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين[2] ، يسمعن الخطبة ، ويشاركن في فرحة الصلاة وفرحة العيد ، وفرحة الاجتماع الكبير بين أبناء المسلمين .

إنَّ العيد يوم تجمع وتجمهر إسلامي ، مظاهرة إسلامية كبرى ، تهتف لله بالتحميد ، والتكبير ، فاحرصوا ـ أيها المسلمون ـ على صلاة العيد في مُصلاَّها في الخلاء والله ولي التوفيق . وكل عام وأنتم بخير . . . وتقبل الله منا ومنكم .

* * *

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة : أنه أصابهم مطر في يوم عيد ، فصلى بهم النبي ﷺ صلاة العيد في المسجد ، وقد رواه أبو داود في الصلاة (١١٦٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣١٣) ، والحاكم (٢٩٥/١) ، وصححه ، وتعقبه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى (٣١٠/٣) ، كلاهما في صلاة العيدين ، وضعف ابن حجر إسناده في تلخيص الحبير (٨٣/٢) .

(٢) عن أم عطية ، قالت : أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهنَّ في الفطر والأضحى ، العواتق ، والحيض ، وذوات الخدور ، فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ، ودعوة المسلمين . متفق عليه : رواه البخاري (٩٧٤) ، ومسلم (٨٩٠) ، كلاهما في صلاة العيدين أحمد (٢٠٧٩٧) ، وأبو داود في الصلاة (١١٣٦) ، والنسائي في صلاة العيدين (١٥٥٩) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٠٨) .